# رجل ... على الأرصفة

قصة بقلم مطاع صفدي

لست ادري لماذا انا معلول بالحزن . ينظر اصدقائي الي فيرون الحزن في وجهي قبل ان يروا وجهي . انهم بسطاء انقياء، يفتشون عن علتي : ولكنني انا وحدي من كنت حزينا بدون علة . من كنت انظر مجرد نظر اليهم . ابادل عيونهم بالنظرة المتسائلة ذاتها ... لعلهم فخورون تقريبا بانهم، يعرفون كيف يعطفون علي ، كيف يكتشفون حزني ، ومن ثم كيف يداروننني بالنظرة المتسائلة : لماذا انا حزين ، وحتى في هذا الوقت الجديب ، وقت لا حزن ولا فرح ، مجرد وجود، هامشي خام ، لا صفة له الا انه مستمر ، متبطل ، منثور بلا هدف ولا حدود ...

انا انسان مثقف بشهادة ، متشرد بلا صنف ، وجدت نفسي دفعة واحدة ، ودون اي تأكيد وجدتني على الارصفة. انني رجل على الارصفة ، اعبر الطريق ذاته الاف المرات ، اترنم بصدى اقدامي على الحجارة المهترئة ، انظر الى الواجهات ذاتها مرة كل نفس ، ومرة كل نفس احدق بالوجوه من حولي ، ذات الوجوه والواجهات ، وذات النظرة مني ، اعرفهم ويعرفونني ، وكل شيء انتهى قبل ان يولد ضمن حدود هذا الفراغ الاصم الا من صراخ الوحشة الازلية تمتد في نقطة اولى في بداية الشارع لتنتهي نقطة فراغ في كل صدر ، وتجمدا لآدميا في كل عين، ونوعا من اللامبالاة المحنطة بالموسيقى في كل وتر من قلب ، وتر قديم صديء يتمطى بانغام شيطانية بدون كفر حقيقي .. حتى بدون كفر حقيقي!

انا رجل ، مع ذلك ، رجل مرتب جيدا من لمعة شعري حتى لمعة حذائي. ولدت من اب يملك عشرين قرية شمالي حلب ، ومن ام تحدرت من الامراء والاكراد في شمالي الجزيرة ، ولقد فضضت اكثر من تسع بكارات لتسع فتيات التقيت بهن في اي مكان ، فوق القش في اصطبل البيت الاقطاعي ، في سيارة ، في عطفة شارع من ليل مظلم ، على فراش من الزهر المحنط في غرفة مأجورة .. وانسان مأجور ، وانسانة مأجورة ، وقدر حقير من الحياة الحقيرة ، بدون الهة .

وعندما رسبت للمرة الرابعة في شهادة البكالوريا قررت ان انتحر ، لولا ان ابي استطاع بقدرة قادر ان يجعلني فتى ناجحا في الشهادة ، ويرسلني الى فرنسا لادرس الطب!

رجعت الى دمشق وكان ذلك عام ١٩٤٥ .. شهر حزيران من ذلك العام .. كان ثمة شيء اخر في شوارع المدينة. كان الاهلون يهتفون ويهللون، ويتزاحمون بالصياح والاجسام والشعارات . كان ثمة شيء أخر سمي انذاك بعيد الجلاء. ووجدتني بين الجماعات على الارصفة ارقص واغني وادبك، وانشد اغاني الفلاحين ، تلك التي ما كنت اسمح لاذني بان تستمع اليها لحظة في قرى ابي من قبل .

كان اهلي ينتظرونني في حلب يعدون زفافي من ابنة اقطاعي اخر . ولكنني لم ارجع الى حلب .. وها قد مضى اكثر من اثنتي عشرة سنة . وانا رجل على الارصفة بدون ماض . بدون اهل ، بدون اي تصنيف سابق علي .. وابى والدي الا ان يتركني لضلالي ، وابيت الا ان استسلم لحكمتي الجديدة .. هكذا عرفت كيف اولد مرة ثانية ، بدون اب ، بدون ام ، بدون ظروف ، اية كانت الظروف من بلدة واسرة ، وتاريخ ، وعيون عجماء مليئة بحقد الالاف من الناس المغمورين تحت طين القمح وجفاف القش المترامي مع رياح الشمال الى اية جهة في الفراغ الاصم .

كان هناك شاب نحيل اصفر مصلوب العينين على شيء صلب ، مشدود الشفاه على حروف يتمسك بها تمسكه بحياته . كان الشاب يدفعني بمنكبيه وسط الجموع المتلاطمة .. وحدجني ببصقة نظرة :

ـ ما بالك ؟ لماذا لا تسير كما يجب ..

ـ الى اين ؟

ـ يا لك من ابله ..

ودفعني ثانية بمنكبه العظمي فثقب لحم كتفي . وقذفت بي الجموع من موجة الى اخرى فاذا بنا اخيرا امام بناية من اربعة طوابق .. واندفع النحيل الاصفر العظمى صائحا :

ـ سأصعد اليه .. احرسوا مخارج البناية جيدا ..

وسمعت قرب اذني اليسرى في تلك اللحظة تفجرا هائلا. لقد رمى قنبلة يدوية اطاحت باجساد ستة من المهوسين المتزاحمين بقربي على فرجة لا يعرفونها ، سوى انها احد مناظر الموت العظيمة ، الموت الحقيقي .

وهوت جثة ثقيلة من سطح الطابق الرابع .. وافسح المتزاحمون لها مكانا لتخبط على التراب والاحجار . وما عتم حتى هرول المعروق الاصفر وراءها .. وكانت الجثة تنتفض في الصدر ، وتنتفخ في الاوداج ، ويطفر الدم الترب من اطراف الفم ، ووضع المعروق قدمه على الراس ، وراح يدعكها بحذائه، وفي وجهه ابتسامة زرقاء الشفتين مسمومة.

واتى رجل من الدرك فاطلق رصاصتين على الجمجمة ، فأراح الجثة من الحركة نهائيا ..

ـ مات الجاسوس .. مات عميل الاستخبارات

الفرنسية ...

وعدنا معا من رصيف الى اخر . كان رجلا جذلا ، فتى متوحشا مخيفا ، ادهشني .. لقد كان يستطيع اذن ان يكون وحشا بكل معنى الكلمة ، وحشا مشروعا .. هكذا ويدب هنا بين الناس كبطل عظيم !

اصبحنا صديقين من نوع غريب ، تعيش بين صدرينا صداقة اشبه شيء بلعنة لا مفر منها . كنا نتقابل في جميع المجالات التي يلتقي فيها الشباب المثقف الذي تزعم حركة النضال ، وادعى انه يقود الطليعة في البلاد .

كان يحدثني عن الثورة ، وهو يكاد يتمزق باعصابه واوداجه، يعدو في المجال الضيق من غرفتي كأنما ولد تلك اللحظة وهو واع اشد الوعي ، واكتشف ان الوجود ما هو الا خدعة ، وان العالم ما هو الا فخ ضد .. ضد ماذا ، انه لا يعرف ، انه يثور ، انه يلعن كل من يمثل هذا.. هذا ( الواقع الفاسد ) تلك الكلمة الكبيرة المبهمة التي بدات احفظها من قاموس هؤلاء ، الناس .. كان يقول :

ـ يا منذر .. انت لا تعرف شيئا ، انك تستطيع ان تتحدث عن باريس ، عن نساء باريس ، عن مقاهي المثقفين، تتحدث عن نضال المقاومين ايام الاحتلال النازي ، تتحمس لهم ، تكاد تتبنى جميع معاني المشاكل القومية والانسانية التي يعانيها الشباب هناك .. نحن مشكلتنا مختلفة ... مختلفة ، لا تجادلني . ينبغي ان تتعرف على ملامح هذا الواقع الفاسد ، كله نتن ، جيف من القرون الوسطى ، مآس لا يحلم بها روائي .. حياة الفلاح ، حياة الموظف ، حياة العامل .. هنا قضية اخرى ، للحرية معنى خاص يا صاحبي ... نحن تحررنا .. نعم تحررنا من فرنسا ... ولكن الا ترى اننا ما زلنا اشبه بالسجناء الذين اطلق سراحهم ، خرجوا من الاقبية العفنة ، من الابواب الحديدية الزرقاء .. ولكنهم يحسون بنوع اخر من السجن ، من القيود ليست في ايديهم ولا في اقدامهم .. انها هنا ... هنا في قلوبهم يا صديقي .. يجب ن تصدقني يا منذر... ان اعداءنا اشباح لا تراها .. انها تطن في اذاننا كمن القي به في كهف يملأ جوه مئات من الخفافيش .. لا تراها .. لا تراك ... ولكنها محومة حول رأسك ، تضرب رأسك ، تصطدم بعيونك ، انها تمتص دماءنا بطريقة سرية جدا .. لعلنا نعاونها نحن كذلك دون ان ندري ..

انظر الى نفسك مثلا .. الست تعتقد بنفسك انك بطل ، بكل ما لبطولة خاصة .. خاصة بك وحدك لا يعرفها غيرك.. حسنا ! لقد رجعت من فرنسا .. ورأيت الثورة في بلادك .. فرفضت حياة اخرى غير الثورة .. رفضت العودة الى بيتك الى قراك .. وربما كان ابوك يعد لك عروسا هناك في حلب .. ها قد مضى عليك سنتان .. ثلاث .. وانت تمارس الطب مجانا .. بين القرى .. وفي الاحياء الشعبية وبين العمال .. تطبب الشباب.. وتحدث الناس عن الثورة، عن اخلاق الثورة .. عن الواقع الفاسد، عن العروبة والحرية وتسكن في غرفة حقيرة على سطح هذا البناء .. تطببهم جسدا وروحا اليس كذلك ... هاهاها ... بل قل انك تلقي بنفوسهم الهادئة مرضا اخر اكثر فتكا وخطرا.. انك تخلق في ارواحهم ارادة جديدة تحيل حياتهم شيئا فشيئا الى جحيم ... قتلت قناعتهم ، علمتهم التمرد المسموم ضد .. ضد كل شيء.. وها انت نفسك..عندما تلقاهم ليلة ما : انهم ينظرون اليك بعين .. بذات العين... التي ترمي بالشك ... يشكون حتى بك .. اتكون حقا ما انت ... اتكون حقا البطل !..

نحن مرضى يا منذر.. مرضى بالمثل الاعلى، ببريق ذهب اخر اخترعناه .. نقيس طولنا بطوله غير المحدود .. هذا المثل الاعلى اللعين .. انه موجة عارمة تقذف بنا من اعماق اليم لتلقي بنا في الجو فمن تنبت له اجنحة تلك اللحظة يظل متابعا التحليق ... واما الاكثرية .. كلنا فاننا نخبط على الارض اليابسة لتتطاير هنا اشلاؤنا على اشواك شكوكنا ... كلنا ... هكذا لا تقاطعني..

ـ بل دعني اقاطعك .. انني انصحك بان تبتعد قليلا ..

ـ اتتهمني بانني بدات اتعب .. لم اعد اصلح ؟.. ان من يدخل الجحيم لا يخرج منه بتاتا الا مجرد دخان ..

ـ ولماذا تسميه جحيما .. ان اكثرنا يعتقد انه يصنع الجنة لامته من عذابه ذاته ..

ـ حسنا فلتات هذه الجنة اخيرا ..

وارتمى عماد على السرير . لقد انتهى صراخه تلك الليلة. وهو الان يبدو انه اشبه بنائم ، وان بقيت عيناه شبه مفتوحتين تعلقان بشيء ما هو جو الغرفة الصامت.

ولقد غرقت انا كذلك بقراءة كتاب . وقبيل منتصف الليل بقليل نهض عماد بوجهه المعروق الاصفر . ووقف قليلا يحسن من شأنه وسار نحو الباب . كانت عاصفة شتائية تهز اركان الغرفة . وقبل ان يفتح الباب قال دون ان يلتفت الي :

ـ يحسن بك ان تنام ... غدا يؤلفون حكومة اخرى من الرعيل الاول ، وسنضرب ، سنخرج بمظاهرة كبرى ... اعتقد انهم سيقابلوننا برصاص الدرك .. يجب ان تكون انت على راس فرقتك..

وقلت مباشرة ـ وهل ستكون هي هناك ..

ودون ان يلتفت كذلك قال بلهجة صماء

ـ قلت لك سنقذف بكل قوانا !

وتساءلت بيني وبين نفسي وهل ستكون ( هي ) كذلك قوة من قوانا هذه ؟

وخرج وابتلعته العاصفة والظلمة .

في صباح اليوم التالي كنت اسير على الرصيف قرب التظاهرة الكبيرة .. وكنت ارى من بعيد ( سامية ) تتأبط اذرعة صف متراص من فتيات الجامعة مرددة الشعارات بسقوط الحكومة الخائنة ، مطالبة بدخول الحرب ضد يهود فلسطين .. كانت ازمة فلسطين يومئذ على اشدها . والحكومات العربية تماطل الامة وتخدعها بشتى التصاريح

التي تنبيء عن بقاء فلسطين عربية ، وعربية الى الابد !..

كانت تلك الشعارات تؤذي حكومات ذلك العهد .. فلم تمض لحظات حتى بدأت طلائع الشرطة تتقدم نحو المظاهرة حاصرة اياها ضمن الشارع العريض ... ثم وقع الصدام بالحجارة .. ونزل الدرك ولعلع الرصاص .. وتبدلت الحكومة عند الظهيرة .

اجتمع رؤساء الشباب ذلك المساء ومعهم سامية وبعض الفتيات عن الفرق النسائية وقرروا تأليف كتيبة باسم الطليعة العربية تسافر الى فلسطين . خلال بضعة ايام ريثما تستعد بالسلاح.

كانت المشكلة تدور حول ايجاد السلاح المفقود ، الباهظ الثمن ... الذي يباع في السوق السوداء من ناحية ما من دمشق ..

اجتمع بعضهم في غرفتي ؛ وكان بينهم عماد وسامية .. وانساق الحديث في شتى النواحي .. حتى وقف عماد اخيرا يوجه كلاما صريحا صاعقا الي :

ـ منذر يجب أن تعود الى حلب ، يجب ان تحصل على المال من اية جهة كانت ولو كان من ابيك.. ولتعد بسرعة. لا اقل من عشرين الفا .. خلال اسبوع ، اسبوع واحد فقط .. هذا هو الحل ..

وعندما انفض الاجتماع .. سرت انا وسامية قليلا في جهة بيتها :

ـ انت تعلمين يا سامية انني اذا ذهبت الى حلب فلن أعود ... فلكي احصل على المال .. لا بد ان انفذ خطة ابي كاملة ... ربما تزوجت .. بل لا بد من هذا الحل حتى يقتنع ابي انني عدت الى جادة الصواب

وتمتمت سامية بخشوع :

ـ ولكنك سترسل المال اليس كذلك ؟.. بل لا بد انك ستبقى تعين الحركة دائما ... على الاقل بالمال ..

ـ ولكنكم قررتم كل شيء ونسيتموني أنا ..

ـ بعضنا لن ينساك يا منذر ..

ـ انهم حكموا علي بالموت .. ضد نفسي ... لست انا مجرد وسيلة .. انا الهدف دائما .. الفرد في حركة الثورة هو الثورة .

ـ نعم .. لا تنس حكمتك يا منذر .. فانت تعلم ان الثورة هي كل فرد .. ولكن بعضنا .. بعضنا يموت ! واجهشت بالبكاء ... وتابعت من خلال الدموع ..

ـ ثم انك .. ثم انك ربما عدت الى حياتك الاصلية .. انت لم تخلق لمثل هذا الشقاء...

وعندئذ رأيتني اقبض على ساعدها واهزها بعنف ما عرفته بي من قبل :

ـ انا لهذه الحياة .. لهذه الحياة بعينها يا سامية .. واما هناك فلن اكون الا ممثلا .. الا مهرجا .. لا يحق لك ان تتهميني بهذا

ـ كلنا هكذا يا منذر .. ان احدا منا لا يخلو من اتهام من متهمين او من نفسه ..

وتذكرت اللعنة . لعنة المثل الاعلى .. هذا الخفاش الذي يصيدك دون عيون . هذا المقياس الذي لا يطوله احد ..

هأناذا مرة اخرى في قلب الصخب .. الجماهير المتلاصقة الحناجر والقلوب والفرح والعظمة . انها تبعث من كل مكان لتملأ فراغ الشوارع الموحشة بدمشق .. وافتش عن الوجوه المعروقة الصفراء .. اين عماد وعشرات ومئات من امثاله . انني اتساءل ماذا يفعلون الان بعد عشرين عاما من الصراخ والعصبية والشراسة والثورة الدائمة .. في يوم الوحدة .. في يوم تقاعدت فيه الوف الشباب الهرمين ... الشيوخ . انه عهد جديد . لنضال جديد لا يعرفونه بعد ..

واحسست ان ثمة عظمة حادة تضرب كتفي فالتفت ... كان هناك شاب اخر معروق ، يتطاير الزبد من صراخه . لم يكن عماد .. ولكنه نسخة جديدة عنه .. لم يكن شابا مشنجا بالالم والقسوة .. كان كتلة فرح وعظمة . يتواثب ليبلغ الرئيس اعمق الشعارات : الوحدة يا جمال .. الوحدة الشاملة يا جمال .. وترد الصراخ الوف الحنجرات.. حتى تلك الحناجر التي سكتت منذ زمن . انها ترددها بفرح.. ولكن بخشوع اعظم .

دمشق — **مطاع صفدي**


صدر حديثا :

١ ـ الطبقة الجديدة — لميلوفان ديلاس
ترجمة مروان الجابري

٢ ـ الظرفاء والشحاذون — للدكتور صلاح الدين المنجد
في بغداد وباريس

٣ ـ مرحبا ايها الحزن (الطبعة الثالثة) — لفرنسواز ساغان
ترجمة فؤاد مويساتي

٤ ـ آراء في الديمقراطية — لدكستر بركينز
ترجمة فؤاد مويساتي

٥ ـ النقابات العمالية — لفلورنس بترسون
ترجمة اميل خليل جيدس

**من كتب المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر**

ص.ب. ٣٥٥ ـ بيروت ـ لبنان